تطبيق 05: نصّ شعريّ في مدح المعز

غرض المدح:

يعدّ غرض المدح من أهم وأكثر الأغراض الشّعرية منذ القديم، ويُقصد به حسن الثّناء وسبيل الشّاعر إذا مدح أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح، وان يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية، ويجتنب مع ذلك التّقصير والتّجاوز والتّطويل.

وقد كان الشّعراء يمدحون بالجود والعزة والشّجاعة والإباء والفتك بالأعداء؛ أي أنّ المدح كان يهتم في المقام الأول بمدح القيّم الإنسانيّة للمحافظة عليها وترسيخها في النّفوس.

كان المدح في الجاهلية جماعيا أكثر منه فرديا وكان يمتاز بالصّدق والعفوية، لكنه في العصور التالية أصبح تكسبيا وأصبح الشّاعر يتفنّن في استعاراته وتشابيهه لدرجة الغلو، وجدير بالذّكر أنّ المدح قيل أولا لمجرّد الإعجاب الصّادق ثم قيل للشّكر ثانيا وأخيرا قيل للتكسب فأصبح مهنة تدر الكثير من المال.

لم يكن في الجاهلية قصائد مدح مستقلة؛ بل كان المدح جزءا من قصيدة تبدأ بالغزل ثم بالفخر ثم بالمدح ثم بالوصف ثم بالخمر وما إلى ذلك، ولم يتخذ المدح استقلالية إلاّ في العصور المولية، كما أنّ المدح تشعبَ من مدح أفراد وجماعات إلى مدح المدن ومدح الأحزاب والفرق.

إنّ الملاحظ في شعر المدح الأندلسي، أنّ أغلبه موجه بالدّرجة الأولى إلى خلفاء الأندلس وملوكه، ونراه يركّز على جانبين؛ الأول يهتم فيه الشّاعر بذكر الصّفات التقليدية للممدوح كالمروءة والشّجاعة والكرم والوفاء وغيرها من الخصال الحميدة، أمّا الجانب الثّاني فيركّز فيه الشّاعر على

انتصارات الممدوح، ووصف المعارك والجيوش، أمّا من حيث الألفاظ فإنّ الشّاعر يحاول حشد الألفاظ الجزلة، مع التّوفيق بين أساليب الجزالة والفخامة، والرقة والسهولة، والتأنق في الصياغة الفنية للألفاظ، فيمنحها بذلك عناية كبيرة.

ويتميّز البناء الفنّي لقصيدة المدح الأندلسية باختلاف طريقة البناء من شاعر إلى آخر؛ فهناك من يبني قصيدته على موضوع المدح فقط، وهناك من يستهل قصيدته المدحية بالغزل أو وصف الطّبيعة أو الخمر أو الشّكوى ثمّ ينتقل إلى المدح، وعموما حافظ غرض المدح على الأسلوب القديم؛ غير أنّ **ابن هانئ** عاب عليه النقاد كثرة المغالاة وتعمد الغريب محاولة منه لتقليد المتنبي، وكانت أغلب مدائحه كحال باقي شعراء الأندلس محشوة بالتملق سائرين على طريقة المشارقة.

2/المدح في شعر ابن هانئ:

غلب المدح على أكثر شعر ابن هانئ وعليه قامت شهرته لملازمته وارتباطه بساسة عصره، وأعلام زمانه، وقد اشتهر بالمعزيات وهي القصائد الّتي قالها في الخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

تذكر المراجع أنّه حين وصل "ابن هانئ" إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية في حدود عام (344هـ أو 345هـ) وسعى هناك للقاء الخليفة، أنشد شعره ومدائحه شخص الخليفة والخلافة مبيّنا جلالتها وعظمتها، مصوّرا ما وصلت إليه من عزّ شامخ ومجد، وبه اقترن اسم ابن هانئ، ولكون الممدوح هو خليفة فهو بالتّأكيد يودّ ويرغب في أن يُمدح كما يُمدح أقرانه، ونأخذ أحد النّماذج الشّعرية الّتي يمدح فيها "ابن هانئ" الخليفة "المعز لدين الله" عندما انتصرت جيوش المعز لدين الله على القرامطة في الشام في عام 361هـ ، اذ بلغ هذا النصر المعز فنظم ابن هانئ فيه قصيدته، اذ قال:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما انت النبي محمدُ وكأنما انصارك الأنصار

أنـت الـذي كانـت تبشـرنا بـه في كتبهـا الأحبـار والأخبـار
هـذا إمـام المتقـين ومـن بـه قـد دوخ الطغيـان والكفـار
هـذا الـذي ترجـى النجـاة بحبـه وبـه يحـط الإصـر والإوزار

هذه القصيدة قوية الديباجة وصف ابن هانئ جيش المعز وانتصاره بالشام على القرامطة ووصف المعركة والخيل التي اقتحمها والأبطال الذين كان لهم شرف النصر فيها، اذ أشاد بالمعز إشادة جميلة، وهذه القصيدة من مبالغات ابن هانئ في مدح المعز الّتي تخرجه عن الدين الاسلامي حيث جعل المعز هو الواحد القهار وهذه الصفات كما هو معروف لا تطلق الا على الله ثم يشبّه المعز بالنبي محمد ويجعل أنصار المعز كأنصار النبي:

كأنما بادرت منها ملوكهم مصارع القتل او جاءوا لموعود
ما كل بارقة في الجو صاعقة تخشى ولا كل عفريت بمريد
ألقى الدمستق بالصلبان حين رأى ما انزل الله من نصر وتأييد

ويذكر الشاعر أن الروم كانت سادة البحر فترة طويلة من الزمن، إذ كانوا أهل فن ودراية بحرب البحر، لكنهم بعد ان داهمهم المعز بجيشه اصبحوا ضعفاء خائفين، اذ يقول:

وشـاغبوا الـيم ألفـى حجـةٍ كمـلاً وهـم فـوارس قارياتـه السـود
فـاليوم قـد طمسـت فيـه مسـالكهم مـن كـل لاحـب نهـج الفلـك مقصـود
هيهـات راعهـم في كـل معـترك ملـك الملـوك وصـنديدُ الصـناديد

ثم يذكر الشاعر هوان الروم وضعفهم وذلهم وذلك بعد الهزائم المتلاحقة التي كبدها بهم المعز لدين الله، اذ يذكر الشاعر انهم يتهافتون في طلب العفو كذلك يكاتب قائد الروم المعز في طلب العفو، يقول ابن هانئ:

وقلتُ أناسٍ ذا الدمستقُ شكرَهُ***إذا جاءهُ بالعفْوِ منكَ بَريد

وتقبيلَهُ التُّربَ الذي فوقَ خدّهِ***إلى ذِفْرَيَيْهِ من ثَراه صَعيد

تُناجيكَ عنه الكُتْبُ وهي ضراعَةٌ***ويأتيك عنه القولُ وهو سُجود

ويتحدث الشاعر عن قائد الروم وهو يؤمل ان يمنع الجيش الاسلامي عن اخذ المواقع والحصون التي استولوا عليها الجيش الاسلامي، فجاء بجيش عدة وعدداً ، اذ كان مخدوعاً بهذا العمل والفعل لأنه يعلم انه لا يستطيع حماية نفسه ولا حماية جيشه وهذا ما حصل فعلاً اذ انهزم جيشه وقتل اكثر وانهزموا الباقون في البحر لطلب الفرار ولكن كان البحر في المرصاد اذ اغرقهم فاذهبوا بين قتيل وغريق، يقول بن هانئ:

ضمن الدمستقُ[1] منك منع حريمها****هلاّ امتناع حريمه لو يَعقلِ

وأراد نصرَ المشركين بجحْفَلٍ***لَجِبٍ فأول ما أُصيبَ الجحفلُ

ومن الملاحظ على ابن هانئ انه يذكر أدوات القتال من العدة والعدد، إذ لا يكتفي بهذه الادوات وإنما يضيف اليها عوامل أخرى وهي نادرة ومستحيلة في المعارك فمن هذه العوامل، كتدخل الملائكة، وعوامل طبيعية، والليل والنهار، وما شابه ذلك ففي إحدى المعارك التي دارت بين الروم والمعز لدين الله ذكر ان الله سبحانه وتعالى سخر له الملائكة لتنصره على اعدائه وسخر له الليل والنهار يقول ابن هانئ:

نزلت ملائكة السماء بنصره***وإطاعة الإصباح والإمساء

[1] الدمستق: رتبة عسكرية في الجيش البيزنطي.

عموما لا يمكن إنكار إبداع ابن هانئ في حسن سبك ونظم شعره لكنّه غالى وبالغ في إضفاء الصفات على الممدوح حتى خرج بها عن محيط المعقول والمألوف، حيث وصلت درجة المبالغة في بعض المواضع إلى درجة تأليه للممدوح بكيفية عجيبة جاعلا من صفات الله عزّ وجلّ صفات المعزّ، وهذا عرّضه إلى الكثير من الانتقادات من قِبل النقاد والعلماء.

المراجع:

-المديح في الشعر العربي، سراج الدين محمد.

-امتزاج الأغراض في القصيدة الأندلسية، قصيدة المدح عن ابن هانئ الأندلسي أنموذجا، ضفاف عدنان إسماعيل.